

الزواج والأسرة

العلاقة الزوجية:

تعرف العلاقة الزوجية في نقطتين أساسيتين: الشرعية، ونية الاستمرار في العلاقة الزوجية . وتبدأ العلاقة بإشهار الزواج ، ومقتضى عملية الإشهار أن تشهد البيئة الاجتماعية بالزواج ، سواء كانت تلك البيئة الاجتماعية جماعة قريبي ، أو عشيرة، أو قبيلة ، أو جماعة جوار ، أو مجتمع محلي ، أو المجتمع الكبير . وفي الأزمنة الحديثة ، أصبح عقد الزواج - في بعض الأحيان - بديلاً عن الإشهار ، كما تعد حفلات الزواج وشعائرها العديدة. والمختلفة من مظاهر هذا الإشهار . إن تعريف الزواج باشتراك نية الاستمرار عند عقد الزواج لا يعنى استبعاد احتمال إنهاء العلاقة الزوجية ، في حالة الاختلاف وعدم التوفيق . إن إمكانية إنهاء هذه العلاقة قائمة ولكن لا تكون النية مقررة ومحسومة مسبقاً قبل الدخول في الزواج . طالما يوجد احتمال تغيير سلوك الإنسان وفقاً لتطور شخصيته ، فإن عدم التوافق قائم حتى حدوث الطلاق أو وفاة أحد الطرفين . إن العلاقات الإنسانية لا يمكن إخضاعها لعلم اليقين ، وبالتالي فاحتمال الاستمرار والانفصال قائمان .

الزواج كمصطلح في المفهوم الاجتماعي والسيكولوجي هو عملية اندماج وانصهار ، ويستخدم مصطلح الانصهار في الأدب السيكولوجي لوصف العلاقات بين الناس بصفة عامة والعلاقات بين الأزواج بصفة خاصة . ويصف المصطلح الحالة التي يكون فيها أحد الطرفين أو كلاهما خائفاً من أن ينفصل عن الآخر أو أن يبقى وحيداً ومستعداً للتنازل عن هويته الفردية لحساب بناء هوية مدجة Merged Identity مع ملاحظة أن الزوجات أكثر من الأزواج ميلاً إلى الانصهار مع الطرف الآخر . ولكن مع زيادة مساحة حرية المرأة فسوف يكون لدى الطرفين مستقبلاً

نفس النسبة في قرار الاندماج أو الانفصال . ان الرغبة في الاندماج لها جذورها منذ مرحلة الطفولة حيث كان الطفل مرتبطاً بالأم . يرى بعض علماء النفس أن الراشدين الذين يحاولون الانصهار مع رفقاتهم إنما يمثلون أو يعبرون عن رغبات نكوصية شبيهة بتلك الرغبات التي كانت لدى الرضيع . وبالرغم من وجود الرغبة في الاندماج والانصهار ، يوجد أيضاً التناقض الوجداني والتذبذب حول الاستقلال وتحقيق الذات الفردية ، ولكن مشاعر الاحتياج المادى والمعنوى والخوف من الوحدة تجذب الإنسان مرة ثانية ناحية الاندماج ، إنه نوع من الصراع اللاشعورى الذى قد ينتج عنه مساحة الاندماج أو انفصال الطرفين . وفي الزواج الكلاسيكى تحاول المرأة أن تجذب الرجل نحو المنزل من خلال بناء حياة اجتماعية جديدة من عائلتي الطرفين ومن الأصدقاء والجيران .

وفي حالة الزواج الذى تكون فيه الزوجة مندججة أو منصهرة على نحو قوى مع الزوج يبقى الزوجان ملتحمين على مدى سنوات عديدة ، وهما في هذه الحالة يبقون على المستوى السيكولوجى وكأنهم في مرحلة طفولية من النمو الانفعالى والاجتماعى وإذا كانت الزوجة في معظم الحالات هى الطرف الأكثر فاعلية في إنشاء هذه العلاقة الاندماجية فإن الزوج مسئول ولو بشكل جزئى عن مجارة هذا السلوك على نحو يبقى على هذه الرابطة، بل إنه يسقط في الشبكة التى تضعها زوجته له . فإذا كان خارج المدينة لعمل ما فإن عليه أن يهاتف الزوجة حتى يحافظ على استمرارية التواصل ودفء المشاعر . وتحاول الزوجة بناء حياة اجتماعية بحيث تحيط أسرتها بمجموعة من الأصدقاء الذين تنتقيهم بعناية بحيث يرضون الزوج، فلا يشعر بحنين إلى أصدقاء ما قبل الزواج .

في كتاب «معنى الحياة» عرف عالم النفس ألفريد أدلر الزواج في الجزء التالى :
(إن الحب وإشباعه بواسطة الزواج هو أكثر درجات الإخلاص والولاء لفرد من الجنس الآخر ، ويتم التعبير عنه في صورة جاذبية جسدية والرغبة في البقاء في صحة الطرف الآخر دائماً إن الصعوبات والخلافات تبرز في صورة مشاكل، وعندما

يواجه المتزوجون هذه الصعوبات فإن الآباء والأمهات يهتمون بها أيضا فهي تشغل المجتمع كله، ولهذا يكون من الواجب أن نعالج المسألة بطريقة عملية غير متحيزة... إن الحب ليس وظيفة طبيعية تماما كما يظن بعض علماء النفس ، فإن الجنس ماهو إلا غريزة أو دافع ، لكن الحب والزواج أكثر من ذلك بكثير فهو أكثر من مجرد إشباع للغريزة ، ونحن نعلم أن دوافعنا وغرائزنا قد نمت وتطورت وتحضرت وتهذبت، فقد كبحننا جراح بعض رغباتنا وميولنا ، فلكى نتلاءم بطريقة أفضل مع الآخرين فقد تعلمنا كيف نتكلم ونعبر عن أنفسنا دون أن نجرح شعورهم ... إذا ما أردنا تحقيق التعاون الكامل والتام بين الرجل والمرأة فإنه على كل منهما أن يهتم بالآخر أكثر من اهتمامه بنفسه ، إن على كل منهما أن يبذل الجهد المخلص في تسهيل وإثراء حياة الآخر ، وبهذا يتحقق الأمن والأمان لكل منهما ، وهذا الأمان سيتحقق لأن كل منهما سيشعر بقيمته وأهميته واحتياج الآخر له ... إنه من غير الممكن لشريك في مهمة تعاونية أن يقبل وضع التابع ، فلا يوجد من يستطيع تحمل وضع الدونية دون أن يمتلئ بالحقد والغضب والرفض لمن أجبره على تقبل هذا الوضع .

كتب الدكتور محمد الجوهري عن تعريف الزواج من منظور الأنثروبولوجيا أى من منظور تطور الإنسان وسلوكه ودراسة الفترات التاريخية في حياة المجتمعات والثقافات : (إذا كان من الواضح أن الزواج يعد وسيلة للإشباع الجنسي ، فإنه له وظائف اجتماعية أخرى أكثر أهمية ... فعند جميع شعوب العالم يعيش الزوجان في حياة واحدة يقرها ويقبلها كل أعضاء المجتمع الآخرين . كما يتوقع منها أن يتعاونوا معا ، أو يتعاونوا مع بعض الأقارب والآخرين لتسيير دفة الأمور في الأسرة كذلك يتوقع منها أن ينجبا الأطفال ، بل إن بعض المجتمعات لا تعتبر الزواج شرعياً إلا بعد إنجاب الطفل الأول ، وبمجرد أن يولد الأطفال يجب أن يعترف الوالدان ببنوتهم ، وأن يتكفلا بهم وبتربيتهم . وعلى الرغم من أن معظم الثقافات تكفل الوسائل اللازمة لإنهاء العلاقة الزوجية ، ألا أن المتوقع عادة ، ن نكرن لدى الشخص المتزوج نية العمل على استمرار الزواج مدى الحياة ، ولا يعتبره مجرد مسألة مؤقتة أو عابرة يمكن أن تنتهى بناء على رغبة أحد الطرفين ... فالزواج هو بالفعل

الوسيلة الثقافية الأساسية لضمان استمرار الأسرة) . لا ينطوى الزواج - فقط - على تعاقد بين فردين ، ولكنه يعتبر أيضًا تعاقدًا بين أسرتين ، كما يعتبر الزواج وسيلة لتدعيم التضامن الاجتماعي وتوسيع قاعدة التعاون داخل المجتمع . يميز الأنثروبولوجيون عادة بين ثلاثة أشكال من الزواج وهي :

- الزواج الواحدى Monogamy أى زواج رجل واحد بامرأة واحدة .
- تعدد الزوجات Polygyny وهو زواج رجل واحد بامرأتين أو أكثر .
- تعدد الأزواج Polyandry وهو زواج امرأة واحدة برجلين أو أكثر ، كما كان يحدث في بعض المجتمعات البدائية ، ومازال قائمًا بشكل محدود في هذه المجتمعات .

غالبًا ما يجمع علماء الأنثروبولوجيا ما بين نظامي تعدد الزوجات وتعدد الأزواج تحت مصطلح واحد هو «الزواج التعددى» Polyamy ، وهو زواج الفرد الواحد - من أى النوعين - بزوجين أو أكثر .

وهناك شكل رابع للزواج كان يتواجد بشكل غير منتشر في بعض المجتمعات القديمة ، وهو ارتباط تعدد الزوجات بتعدد الأزواج حيث تتمتع مجموعات من الرجال والنساء بحقوق زوجية متساوية، ويطلق على هذا الزواج باسم الزواج الجماعى Group Marriage، ونوه الأنثروبولوجيون على وجود هذا الزواج عند قبائل الماركيزان المتواجدة على شواطئ جزر الماركيز الكبرى .

يعتبر اختيار الزوجة عملية سيكولوجية يؤديها الفرد معتمدًا على بعض العوامل الاجتماعية والنفسية . لا يوجد معيار مطلق لعملية الاختيار ، ولكن عادة ما يختار الرجل زوجته من الوسط الذى يعيش فيه وفق بعض الشروط المتعلقة بالسن ، والحالة الاقتصادية والثقافية ، والمكانة الاجتماعية . وفي العصر الحديث ، وبعد أن تطورت نظم الاتصالات والمواصلات ، اتسع أفق الإنسان وأصبح يتصل ببيئات جديدة وثقافات مختلفة ، ويكون صداقات عديدة ، كما أصبح بغض الطرف عن

بعض الشروط الاجتماعية التي كانت من الثوابت عند أجداده . كان الرجل في قديم الزمان يأخذ شريكة حياته، أو الفتاة التي يريد أن تكون زوجة له عن طريق الخطف معتمدا على قوته . وتطور هذا النظام بمرور الأيام فأصبح الرجل يشتري زوجته بالمال ، أو عن طريق المبادلة . وكان الشاب طالب الزواج يدفع هو أو أسرته مبلغا من المال يحدده أهل الزوجة وذلك مقابل الحصول عليها ليتزوجها ، وإذا كان عاجزا عن دفع هذا المبلغ يشتغل طالب الزواج عدداً من السنوات في أملاك أهل الفتاة حتى تصبح ملكا له ، كما فعل يعقوب عندما حصل على راحيل زوجة له . كان المجتمع يرغم الفتاة على ألا تعترض على قرار الأب أو المسئول عنها في قبول أو رفض طالب الزواج . وفي العصر الحديث أصبح الزواج مبنيا على الموافقة الشخصية التي تعلن عنها صراحة الفتاة ، ولا يستطيع أحد - في المجتمعات الحضارية الحديثة - أن يفرض على المرأة قبول زوج لا ترغب فيه ، كما لم يعد في سلطة الأب أو الأم أو الأهل أن يتدخلوا في مصير ومستقبل بناتهم . ورغم كل هذا التقدم والتطور فما زالت بعض المجتمعات تفرض القيود وتلزم الفتاة برأي الأهل .

امتزجت الثقافة العامة للبشر في منتصف القرن العشرين بالرومانسية ، بعدما عانت البشرية من حربين عالميتين في النصف الأول من نفس القرن . انعكست هذه الرومانسية على الشباب المتطلع للزواج في رغبته في الكفاح مع رفيق حياته ، والتمتع بقطف ثمار كفاحه والصعود سويا . وفي بداية الألفية الثالثة ومع التقدم التكنولوجي، غلبت الواقعية والمادية وطغت على ثقافة البشر ، وبعد الإنسان الحديث عن التوازن النفسي الذي يؤدي إلى الرضا العام والسعادة . عرف عالم النفس الدكتور أحمد عكاشة الصحة النفسية في: (التمرکز حول هدف عام وعدم التمرکز حول الذات). وظهرت في الحياة العامة للبشر النتيجة السلبية للواقعية المادية والمتمثلة في الأنانية، وعدم الانتماء ، والإحباط ، واختفاء الرومانسية في علاقاتنا الإنسانية ، خاصة بين الشباب المقبل على الزواج . نبه الدكتور أحمد عكاشة على خطورة بعد الشباب عن الحب والرومانسية والانغماس الكامل في الواقعية المادية : (إن الحاجة إلى الحب وتبادل العواطف ماسة بالنسبة لهذه الأرواح الغضة

والقلوب الخضراء . وقد لا يمكننا تقديم تعريف محدد للحب ، على الرغم مما قدمه معظم الفلاسفة والشعراء والأدباء في هذا الصدد ، ولكن الحب هو التكامل الفكرى والوجدانى بين طرفين ، والإحساس المستمر بالرحمة بوجود الطرف الآخر ، والقدرة على التغاضى عن أخطاء الغير ... ولكن نظرة فاحصة إلى الحياة المعاصرة فى سرعتها وماديتها ، تكشف لنا أن المناخ العام ينحى الحب أكثر مما يجعله مزدهرا . .. ومعظم عقول شبابنا تسيطر عليها متطلبات الحياة المادية والأساسية . لهذا تصبح قدراتهم على الحب محدودة ، ويصبح الحب بالنسبة لهم معادلة حياتية ، الغرض منها إشباع الحاجات الأساسية ... من هنا يغلب الطابع الانتهازى فى العلاقات العاطفية المعاصرة سواء كانت انتهازية عاطفية أو مادية أو جنسية) .

من المفترض أن يكون الحب هو القيمة الأساسية فى اختيار الطرف الآخر عند الإقدام على الزواج، ويمكن تناول الحب من محورين : الأول كقيمة سامية ، والثانى كغريزة فطرية . والحب - بصفة عامة - يعنى إنكار الذات ، وعدم التفكير والتركيز فى النفس ولكن فقط - فى من / ما نحب . والحب قد يتجه فى اتجاه روحى / صوفى، وقد يشوبه المادية من حيازة وتملك . أما المحور الثانى فهو كما تراه مدرسة التحليل النفسى كدافع فطرى يرثه الإنسان ويولد به . كتب الدكتور فرج عبد القادر فى «موسوعة علم النفس والتحليل النفسى» عن غريزة الحب Love Instinct : (هذا الدافع هو الذى يؤدى إلى استمرار الحياة وازدهارها ، ويؤدى إلى كل ما هو إيجابى وبناء فى الحياة . فنحن نحب بعضنا البعض بسبب هذا الدافع ... ونولاه ما حنت الأم على وليدها وعانت فى سبيل إسعاده وإشباع مطالبه ، ولولاه أيضا ما شقى الأب فى هذه الحياة لتوفير سبل العيش والسعادة لأبنائه وذويه ... وما ضحى المواطن حياته فداء لوطنه . وغريزة الحب هى التى تدفع إلى أن يحب ذويه وأصدقاءه وزملاءه كما تدفع الفرد إلى أن يحب فردًا من الجنس الآخر حبًا مشوبًا بالرغبة الجنسية ، أو حبًا نقيًا خالصًا من الجنس) . يرى فرويد أن من هذه الغريزة ومن غريزة التدمير - كنقيض لها - تتكون جميع الدوافع النفسية التى تسير السلوك

الإنسانى . فى الغالب يحتفى الحب - بمعناه الدارج من لهفة وشوق - بعد الزواج ، وتبدأ علاقة أسمى من المعاشرة القائمة على التعاطف والمودة والرحمة .

وبامتداد فترة الزواج نخبو من العلاقة الزوجية الشوق المتأجج ، ليبدأ التفاهم فى السيادة فى حالة الزيجة الموفقة . إذا تم فى مرحلة الزواج الأولى إشباع مجموعة المطالب البيولوجية من طعام وشراب ومأوى وجنس ، فإن الزوجان ينتقلان إلى المرحلة الثانية من «هرم متطلبات الحياة» والتي من أهم عناصرها الإحساس بالانتماء للأسرة ، بجانب الانتماء للوطن ولعقيدة تشكلت من ثقافة المجتمع ومن التجارب الشخصية . يأتي الحب والقدرة على العطاء فى المرحلة الثالثة ، ثم ينتهى هرم متطلبات الحياة ، بالنواحي المعرفية والتذوق الجمالى ليختتم بتحقيق الذات ، والوصول إلى حالة الانسجام والتوافق والتناغم بين الذات الفردية ، والبيئة / المجتمع .

إن الوجدان بجميع مشتقاته من مزاج Mood وانفعال وعاطفة ، مع التفكير العقلانى / المنطقى ، والسلوك السوى القائم على الالتزام ، يمثلون الأسباب الرئيسية فى استمرار العلاقة الزوجية . قد يتسرب الفتور بين الزوجين نتيجة للرتابة والروتين اليومى ، ورؤية الطرفين لبعضهما البعض طول اليوم ، لذا يلزم الاجتهاد للتغلب على الفتور الذى يتسلل إلى الحياة الزوجية . قد يكون البعد لفترة هو الوسيلة للاشتياق ، وقد تكون المشاجرات المعتدلة النبرة هى الطريقة لتفريغ شحنات الضيق والاستمتاع بلذة المصالحة بعد الخصام . لاشك فى أن وجود الأبناء يحول جزءاً كبيراً من الشحنة العاطفية للزوجين نحوهم مما يتيح قدرًا من الاستقرار وعدم الفتور أو الملل ، ولكن لا يعطى الإنجاب ضمانا لاستمرار العلاقة الزوجية . يوجد زيجات ناجحة وسعيدة دون إنجاب ، فالعلاقة الزوجية المستقرة تقوم على التفاهم والمشاركة فى العاطفة والفكر ، وقد يكون الأبناء سبباً للشقاء والتعاسة مثل ما يكونون من أسباب الارتياح النفسى والسعادة .

اكتسبت الطفولة - خاصة فى سنواتها الأولى - أهمية خاصة فى المجتمعات المتحضرة . يسعى الطفل منذ لحظة الولادة نحو الارتباط بأمه ، وتلعب الأم الدور

الأساسى والحيوى فى حياته حيث يعتمد بصورة كاملة عليها . تمثل الأم أول علاقة للطفل بفرد آخر من الجنس البشرى ، وبالتالى تكون أول شىء يهتم به الطفل بعد ذاته ، فالأم تمثل الجسر الأول الذى يربط بينه وبين الحياة الاجتماعية . إن حمل الأم لطفلها وتغذيته وتنظيفه ما هو إلا فرص لزيادة الارتباط بين الأم وطفلها ، وإذا كانت الأم غير ماهرة فى مثل هذه المهام أو غير مهتمة بإنجازها على الوجه الأكمل ، فإن الطفل سيقاوم الأم وسيحاول التخلص منها والابتعاد عنها . إن الأم هى التى تعطى لطفلها الفرصة لكى يحبها أو يكرهها والسبب لكى يتعاون أو يرفض التعاون معها . لا يوجد وصفة سحرية لاكتساب مهارات الأمومة ، فكل مهارة ما هى إلا نتيجة للاهتمام فى التدريب والتعلم ، ولكن تجد الأم المشغولة فى محاولات إثبات تفوقها الشخصى تجد صعوبات فى الارتباط بأطفالها وتنشئتهم النشطة السوية والسليمة، فهذه إثبات الذات خارج نطاق العائلة يبعد الأم عن دورها الرئيسى . إن هدف التفوق الشخصى يجعل الأم تنظر إلى عملية تربية الأطفال على أنها عبء ومضيعة لوقتها وتشتت لجهودها ، ولكن يصبح دور الأم بالغ الأهمية لو مهدت لأطفالها الطريق ليصبحوا أعضاء نافعين فى المجتمع ووسعت مداركهم واهتماماتهم بالنواحي المختلفة للبيئة التى يعيشون فيها وبالتعاون مع الآخرين .

لم تعد مكانة الفرد فى المجتمعات الحديثة تتحدد فى ضوء انتباهه العائلى فى المرتبة الأولى ، وإنما هى تتحدد على أساس إنجازه الفردى الخاص . هذا ما دفع علم الاجتماع المعاصر إلى أن يقابل بين نمطين مختلفين من المجتمعات ، الأول تتحدد فيه مكانة الفرد فى ضوء وضعه العائلى ، وهو ما يعرف باسم «المكانة الموروثة» ، والثانى تتحدد فيه مكانة الفرد فى ضوء إنجازه الشخصى - الاقتصادى فى الأساس - وهو ما يعرف باسم المكانة المكتسبة . وأصبحت التشريعات الحديثة فى أكثر البلاد الغربية الصناعية تصنع قانون الزواج أسبق من قانون الأسرة ، ولا يرجع ذلك - فقط - إلى أن الأسرة تبدأ بالزواج ، إنما يرجع إلى أن الزوجين فى الأسرة الحديثة قد أصبحا يحتلان أهمية نسبية من الناحية البنائية . فى هذه المجتمعات أصبح الأطفال منذ سن مبكرة نسبيا يتمتعون بقدر من الاستقلال والاعتمادية على النفس ، والتباعد عن الوالدين - إلى حد ما - عند الوصول إلى مرحلة المراهقة والشباب .

يتحطم الزواج عندما يتجه الرجل إلى العنف في إطار « تأكيد الرجولة » ، أو عندما تتمسك المرأة بالمبادئ المتشددة مثل: «تعايش معي كما أنا، فإني لن أغير». إن العلاقة بين الزوجين تمثل شبكة معقدة من الخيوط التي تربط بين الطرفين ، وأى سلوك من أى طرف يحدث شد لأحد الطرفين وجذب للطرف الآخر ، والإدارة الحكيمة لهذه الشبكة تتمثل في مرونة امتصاص ألم / تكدير / ضيق / قلق / .. عملية الشد / الجذب . وتتحقق السعادة الزوجية في تحويل الشعور السلبي الناتج من عملية الشد / الجذب إلى مباراة أو لعبة تؤدي إلى: الاستمتاع / التفكير / التحليل / القضاء على وقت الفراغ / التغيير / دلال الصد والرد .

في عملية الزواج يبدأ تدمير الذات من تدمير الطرف الآخر ، في معركة تجذب في الغالب أطراف أخرى - مثل الأطفال والوالدين - إلى صراع وشقاء . إن وصم الطرف الآخر بشذوذ الأطوار ، أو وصفه بسوء الطباع ، أو نعته بالقسوة أو البخل أو غيرها من الأوصاف السلبية ، تجعل من الطرف الآخر أكثر شذوذاً ، وأسوأ طباعاً ، وأشد قسوة وصلابة ، وضمنينا في العطاء . ينصح علماء النفس بالتشجيع لتغيير الطرف الآخر لتحويل السمات السلبية إلى إيجابية ، مع العلم إن عملية التحويل لا تتم بسهولة ويسر، فطبيعة الإنسان مقاومة للتغيير .

يعتبر العناد شكلاً من أشكال السلوك الاستفزازي الذي يؤدي إلى انهيار العلاقة الزوجية . والعناد هو التهادي في البنى والتحدى الذي يخلق العدواة والعدوانية ، ويبعد الزوجين عن روح التسامح والتساهل . يعنى استمرار الزوجين في العناد عدم النضج النفسى ، وأن أحد الطرفين يعاني ضغوطاً نفسية وأن الطرف الآخر يتجاهل - متعمداً أو من غير قصد - الإحساس والمشاركة في هذه الضغوط . في العناد يتهم كل طرف الآخر ، ويحمله النصيب الأكبر في المسئولية ، ويرى - في نفس الوقت - أنه الضحية . من الأخطاء الشائعة في العلاقة الزوجية أن الطرفين أو أحدهما - يتجهان إلى عدم المواجهة الهادئة خوفاً من الصدام ، فتتراكم المشاكل ويتزايد المخزون السلبي في الشعور وفي اللا شعور . من الصحة النفسية أن يواجه كل

طرف الآخر بأخطائه بأسلوب عقلانى وحوار هادئ يشويه المودة والرحمة ، دون حساسيات من النقد الذى لا يجرح المشاعر ودون هجوم عدوانى أو استفزازى .

المغامرة ، اكتشاف المجهول، حب الاستطلاع ... غرائز يعيش بها الإنسان ، ليكسر بها ملل رتابة الحياة . فى مرحلة منتصف العمر ، وبعد أن يشب الأطفال ويزداد الاعتماد على النفس ويقل احتياجهم إلى الوالدين ، يشعر كل من الطرفين - الزوج / الزوجة - بالوحدة الداخلية وباجترار معاناة الفترة السابقة ويبدأ لاشعوريا فى تحليل شخصية الطرف الآخر لاجتلاب أسباب ومعايير للبعد. لقد حدث بين الطرفين مواقف كثيرة نما فيها التوتر والخلاف ، وحوالا التجاوز عنها من أجل الأطفال ونتيجة لضغوط من أطراف خارجية مثل الأهل والأصدقاء ، ولكن تأتى اللحظة التى يطفح فيها الكيل ويبدأ أى من الطرفين أو كلاهما فى التمرد ورفع راية العصيان ، إنها مرحلة منتصف العمر التى تتميز بإعادة تقييم الإنسان - ذكر وأنثى - لذاته وللآخر ، وقد ينتهى الأمر إلى التفكير فى الهجر أو الطلاق ، وقد يحدث فعلا إذا تفاقمت الأمور.

قبل أن تنتهى رحلة الحياة ، وبعد أن يتقاعد الرجل عن العمل ، وبعد إحساسه بأن دوره فى الأسرة قد انتهى أو قارب على النهاية بزواج أبنائه ، قد يمر الرجل بأخطر فترة وهى السن الذى يمارس فيه مراهقته المتأخرة . تبدأ ذكريات الرجل فى التوارد على ذهنه متضمنة الأحداث التى مرت به وسلوك زوجته ناحيته ، ويبحث عما لم يفعله فى مرحلة كفاحه ، فإذا كانت الزوجة عبأ عليه أو عانى منها فى مرحلة انشغاله بعمله ، فإنه يفكر ويخطط فى التخلص منها . إن الرجل فى هذه المرحلة يسعى إلى من يغدق عليه الحب والحنان ، والعاطفة بجميع أشكالها . وعلى الزوجة الذكية أن تعطى الإحساس للرجل بأهميته من خلال المشاعر الدفيئة والحب والاهتمام ، وأن تحافظ على رباط الزواج المقدس حتى نهاية القصة التى بدأت بنظرة ، وتداخلت خيوط حبكتها من الأحداث التى مرابها ، فى انتظار النهاية السعيدة وهى سنوات العمر الأخيرة التى قد يعيشان فيها وحدهما بعد أن يترك الأبناء البيت .

يجب على الزوجة في هذه المرحلة ألا تصفى حساباتها القديمة ، وأن تتسامى عن أخطاء الرجل - إن وجدت - وبقينا ستوجد أخطاء من وجهة نظرها حتى لو كان الزوج ملاكا ، فالأنثى بطبعها شاكية ولكن هي أيضا بطبعها حانية .

عندما يبدأ طرفا الزواج في اجترار الذكريات الأليمة ، والبحث عن نقائص الطرف الآخر، تظهر الشروخ التي حاول كل من الطرفين أن يواربها. في الغالب ما يتعد طرفا الزواج عن الفلسفة الإنسانية الحقيقية. لارتباط الزواج بكونه مثل الحب الذى يشعر به الطفل: إحساس عام وليس أعمال وأفعال تقيم بمعايير عقلانية ونفسية من المكسب / الخسارة ، السعادة / التعاسة ، الحب / الكراهية ، ... إلى آخره . الزواج ليس أسطورة حب رومانسية بها زوج يدخل بيته في المساء حاملا باقة من الزهور مع هدية قيمة لتقديمها إلى زوجة رشيقة وأنيقة قد انتهت من ترتيب البيت وتنظيفه ، وتدعوه إلى ما لذ وطاب من أنواع الطعام ، بالأحضان والقبلات . تستمر رحلة الزواج عندما يتوصل الطرفان إلى حقيقة الزواج التى تتمثل فى التماثل غير الكامل ، أو عدم التوافق الذى نستطيع أن نحيا به فيه . إن عقد الزواج لا يمثل صفقة متكافئة من الحسابات المادية ، فإن مثل هذا الزواج هو عقد سئ ، أو كما أسماه عالم النفس اريك فروم : المقايضة الغيبية للشخصيات . إن الزواج ليس سوقا للتنافس أو المساومة ، إنما هو إطار يتعايش داخله اثنان ، دون محاولة أى طرف للخروج أو دفع الآخر إلى تجاوز حدود الإطار .

الزواج فى مصر الفرعونية :

كثيرا ما كان الملك فى مصر الفرعونية يتزوج أخته ، بل كان يحدث أحيانا أن يتزوج ابنته ليحتفظ بالدم الملكى خالصا من الشوائب . انتقلت عادة الزواج بالأخوات من الملوك إلى عامة الشعب . وكان لفظ أخ وأخت تعنى فى الشعر المصرى القديم حبيب وحبيرة . كان للملك فضلا عن زوجاته عدد كبير من الجوارى ومن أسيرات الحروب ، وبعضهن كهدايا من الملوك والأمراء الأجانب داخل القصر الملكى . أما عامة الشعب فكانوا يقنعون بزوجة واحدة ، ويبدو من

نقوش الفراعنة ومن الخراطيش التي عثر عليها أن الحياة العائلية كانت منظمة وذات مستوى رفيع من الوجهة الأخلاقية ومن حيث سلطان الأبوين ، وكان الطلاق نادرا إلا في عهد الاحتلال والاضمحلال . كان الزوج يطرد زوجته من داره دون أن يعرضها بشيء إذا اتهمت بالخيانة ، أما إذا طلقها لغير هذا السبب فكان عليه أن يخصص لها جزءا كبيرا من أملاك الأسرة . ومن جهة أخرى كان الزوج المصرى يبذل قصارى جهده في رعاية الزوجة والإخلاص لها ، حيث شاع أنه لا يوجد شعب قديم أو حديث قد رفع مكانة المرأة مثل ما رفعها سكان وادي النيل، والدليل على ذلك نصيحة بتاح حتوب لابنه والتي يقول فيها: «إذا كنت ناجحا وأثت بيتك، وكنت تحب زوجة قلبك ، فاملاً بطنها واكس ظهرها .. وأدخل السرور على قلبها طوال الوقت الذي تكون فيه لك ، ذلك أنها حرث نافع لمن يملكه وإن عارضتها كان في ذلك خرابك». وفي بردية أخرى تشهد حكمة قالها أب لابنه : «ينبغي ألا تنسى أمك ... فقد حملتك طويلا في حنايا صدرها وكنت فيها حملا ثقيلًا، وبعد أن أتممت شهورك ولدتك، ثم حملتك على كتفها ثلاث سنين طوالا وأرضعتك ثديها في فمك وغدتك، ولم تشمئز من قذارتك ، ولما دخلت المدرسة وتعلمت الكتابة كانت تقف كل يوم إلى جانب معلمك ومعها الخبز والجمعة جاءت بهما من البيت» .

كانت الأسرة الفرعونية تميل إلى سلطان الزوجة على سلطان الزوج بعض الشيء ، وشاهد على ذلك أن المرأة لم تكن لها السيادة الكاملة في بيتها فقط ، بل إن الأملاك الزراعية كلها كانت تنتقل إلى الإناث . كان الزوج يتنازل لزوجته في عقد زواجه عن جميع أملاكه ومكاسبه المستقبلية ، لذا كان سبب زواج الأخ بأخته هو الاستمتاع بميراث الأسرة وحتى لا يخرج إلى رجل غريب . على أن سلطان المرأة المصرية نقص تدريجيا على مر الزمان ، وقد يكون السبب هو أثر التقاليد الأبوية التي أدخلها الهكسوس بعد احتلالهم أرض مصر ، وأثر انتقال البلاد من عزلتها الزراعية حيث كانت الزوجة تساعد الزوج في العمل بالحقل ، إلى طور الغزو والحروب حيث لم يكن للمرأة أى دور في الحملات الحربية . وبعد ما دخل الإسكندر الأكبر

مصر وزاد نفوذ اليونان بثقافتها المختلفة في أيام حكم البطلمة ، أصبحت حربة الطلاق - والتي كانت من حق المرأة أن تطالب بها - حقا خالصا للزوج لا ينازعه ولا يجادله فيه أحد . ويبدو أن هذا التغير لم يمس إلا الطبقات العليا من أهل البلاد ، أما عامة الشعب فقد ظلت متمسكة بالتقاليد القديمة .

كتب المؤرخ ول ديورنت في موسوعة « قصة الحضارة » عن الأمور التي تخص الخطوبة في مصر الفرعونية : (كانت المرأة هي البادئة ، وشاهد ذلك أن ما وصل إلينا من قصائد الغزل ورسائل الحب أغلبه موجه من المرأة إلى الرجل ، فهي التي تطلب تحديد مواعيد اللقاء وهي التي تتقدم بالخطبة إلى الرجل مباشرة ، وهي التي تعرض عليه الزواج مباشرة ، وقد جاء في إحدى هذه الرسائل : « أي صديقي الجميل ، إنني أرغب في أن أكون ، بوصفى زوجتك ، صاحبة كل أملاكك » ومن ثم نرى أن الحياء - وهو أمر يختلف عن الوفاء - لم يكن من صفات المصريين البارزة ، فقد كانوا يتحدثون عن الشئون الجنسية بصراحة ... وكانوا يزينون هياكلهم بصور ونقوش تظهر فيها أجزاء الجسم كلها واضحة أتم وضوح ، وكانوا يقدمون لموتاهم من الأدب الفاحش ما يسليهم في قبورهم . لقد كان الدم الذي يجري في عروق سكان وادي النيل دما حارا ، ومن أجل ذلك كانت البنات يصلحن للزواج في سن العاشرة ، وكان اتصال الفتيان والفتيات قبل الزواج حراما ميسرا ... وكانت الفتيات الراقصات يقبلن في أرقى مجتمعات الرجال ليقدمن للمجتمعين ضروب التسلية والمتعة الجسدية ، وكن يرتدين ملابس شفاقة أو يكتفين أحيانا بالتزين بالخلاخل والأساور والأقراط) .

الحياة الأسرية :

ازداد أهمية مفهوم دورة حياة الأسرة Family Cycle في العصر الحديث ، لإدراك أن مفهوم الأسرة يختلف من حالة لأخرى حسب نوع المرحلة الزمنية التي تعيشها الأسرة . يمكن تقسيم هذه الدورة إلى ست مراحل أو ست حالات حيث إنه قد لا تمر الأسرة بجميع المراحل .

- ١ - الزوجان في بداية عهد زواجهما ، ومرحلة عدم وجود أطفال .
- ٢ - الزوجان مع أطفالهما في سن ما قبل الدراسة .
- ٣ - الزوجان مع الأبناء في مرحلة الدراسة ومرحلة المراهقة .
- ٤ - دخول الأسرة في مرحلة ما بعد الوالدية ، حيث يبقى الأولاد الكبار في البيت ، أو يغادرونه بالزواج أو عدمه .
- ٥ - الزوجان يعيشان وحيدين كما كانا في بداية الزواج .
- ٦ - عند وفاة أحد الزوجين تطرأ حالة جديدة يمكن التعايش معها من خلال عدة احتمالات، مثل الوحدة، أو الانتقال إلى بيت أحد الأبناء أو الأقارب، أو الانتقال إلى بيت المسنين .

أكد علم الاجتماع على وجود أربعة وظائف أساسية تؤديها الأسرة النووية للحياة الاجتماعية وهي: الجنسية، والاقتصادية، والتناسلية، والتربوية. وتمثل الوظائف السيكولوجية - أساسا - في إشباع الحاجات الجنسية للزوجين ثم تحقيق الأمان العاطفي للزوجين والأطفال . وتكتسب الأسرة وظائف أخرى، فهي غالبا ما تكون مركزا للعبادة الدينية حيث يلعب فيها الأب دور رجل الدين ، كما أنها تمثل وحدة أولية مالكة للأرض خاصة في الريف . وبصفة عامة قد تتوقف المكانة الاجتماعية على الوضع الأسرى أكثر مما تتوقف على إنجاز الشخص أو كفاءته .

الأسرة النووية هي عبارة عن جماعة تتكون من الزوجين وأبنائهما غير المتزوجين . وينتمي الفرد في العادة إلى أسرتين نوويتين ، الأولى هي الأسرة النووية التي تربي فيها (وتعرف باسم أسرة التوجيه) ، والثانية هي التي يقوم بها بدور الأب (وهي أسرة التكاثر) . ويمكن أن تتحول الأسرة النووية إلى شكل أكثر اتساعا وأكبر بناء منها وهو الأسرة النووية الممتدة ، وذلك بوجود تعدد الزوجات ، وفي هذه الحالة تتكون الأسرة من ذكر بالغ وزوجتين أو أكثر وأطفال . وفي بعض المجتمعات (في العصور القديمة / غير الحضارية) التي تسمح بتعدد الأزواج ، تتكون الأسرة من أنثى بالغة ورجلين أو أكثر وأطفالهم .

بعد التطور والتقدم العلمى والتكنولوجى السريع خاصة فى العقود الأخيرة ، وبعد نجاح عمليات الاستنساخ فى الحيوانات وإمكانية تطبيقه فى الإنسان ، فإن من المحتمل أن تتغير النظم الاجتماعية الأساسية - مثل هيكل الأسرة - والتي ظلت طوال العصور الماضية أنماطاً تقليدية ثابتة ومتوارثة . إذا كانت سنة المنظومة البشرية هى التغيير فمن المؤكد حدوث تحويل وتعديل فى نظام العائلة الذى كان دائماً الركيزة البيولوجية للحياة الاجتماعية واستمرار بقاء الجنس البشرى . بدأت الثقافة الغربية فى التحلل التدريجى من نظام العائلة النوواة Nuclear Family ، أى الأسرة المكونة من الأب والأم ، والأبناء الذين يعيشون مع العائلة حتى الانفصال بالزواج ، وأصبح الزواج التقليدى عرفاً لا معنى له أمام الحرية الشخصية التى تعطى الرجل والمرأة نفس الحقوق فى المعاشرة بدون زواج ، كما تعطى المرأة الحق فى إكمال الحمل أو الإجهاض .

فى الولايات المتحدة الأمريكية ارتفع عدد حالات المعاشرة المستمرة والمستقرة من دون زواج خلال عقد التسعينيات من القرن الماضى من ٢.٣ مليون حالة إلى ٥.٥ مليون حالة ، بينما تراجعت نسبة العائلة النوواة القائمة على الزواج الرسمى من ٤٥٪ من كل العائلات فى الستينيات إلى حوالى ٦٪ مع بداية القرن الواحد والعشرين . فى بداية الألفية الثالثة نشر الكاتب ريتشارد برتود تقريراً عن التكوين العائلى فى بريطانيا شرح فيه التغييرات التى حدثت على مفهوم العائلة ، وتطور الثقافة العامة التى سمحت بالتححر فى ممارسة الجنس وقبول مبدأ مساواة الطرفين - ذكر وأنثى - فى المعاشرة دون زواج رسمى ، وأيضاً حق المرأة المطلق فى حرية التصرف فى جسدها باعتباره من الأمور الشخصية البحتة ، والتى لا يجب أن يناقشها أحد فيه حتى الوالدين . أصبح للطرفين الحرية الكاملة فى اختيار العلاقة بينهما ، كما أصبحت العلاقة المثلية حرية شخصية ، فالإنسان - فى الثقافة الغربية - له كامل الحرية لاختيار الأسلوب والمنهج الخاص به للوصول إلى السعادة . سوف يأتى المستقبل بنظام أسرى لا يكون للرجل فيه أى دور ، ما دامت المرأة تستطيع أن تنجب أطفالاً دون مشاركة الرجل ، وقد يخفى «مصطلح الأبوة» باختفاء الأب كعنصر فى بناء الأسرة .

تعتبر المشاكل الأسرية مواقف تهدد الحياة الانفعالية لأفراد الأسرة ، كما تهدد استمرار الحياة الأسرية كوحدة متفاعلة تؤدي وظيفتها في المجتمع . ذهب الدكتور صالح حزين إلى أن المشاكل الأسرية - بصفة عامة - تنقسم إلى نوعين رئيسيين :

• المشاكل الأدائية Instrumental Problems

وهي مشاكل تهدد جوانب الحياة الأدائية التي تحتاج إلى تنظيم وتخطيط خاص مثل الأنشطة الأساسية للدخل المادي ، وأداء الوظائف الضرورية للمعيشة، كالمشاكل الاقتصادية والصحية ، والمشاكل المتعلقة برعاية شؤون المنزل . إن فقد رب الأسرة لمصدر رزقه يؤدي إلى عدم الإنفاق على المنزل وعدم إشباع الاحتياجات الضرورية ، وعدم قدرة الأم على مباشرة عملها في المنزل من إعداد الطعام وترتيب وتنظيف المنزل أو عدم قدرتها على رعاية أطفالها يؤدي إلى حالة من القلق والاضطراب ، كذلك يؤدي انشغال الوالدين بمرض أحد أعضاء الأسرة إلى تعطيل القيام بالمتطلبات الأساسية للحياة الأسرية .

• المشاكل الوجدانية Affective Problems

يعرف الوجدان بأنه شعور انفعالي ناتج من التجربة الحياتية التي يمر بها الإنسان يومياً ، والوجدان عبارة عن شحنة نفسية تتصل بموضوع التجربة أكانت سارة أو غير سارة . ويأخذ الوجدان شكل العواطف والانفعال والذي يؤدي إلى اتجاه وسلوك . من المفترض أن يظهر أفراد الأسرة أنواعاً مختلفة ومتنوعة من المشاعر والوجدانات لبعضهم البعض سواء كان ذلك بطريقة لفظية أو غير لفظية، دون أن يؤدي إلى الشعور بالتهديد أو الصراع والخصام أو القلق الشديد . قد يتماهى الطفل في البكاء والصراخ حتى يرى إلى أي حد يستطيع التأثير على الأم ، أو قد يتمرد الأب على الخنوع بإبداء رؤية فتقرظه الأم وتبوخه وترغمه على السكوت ، فتعتبر هذه الأنواع من المشاكل سلبية يجب معالجتها من أجل سعادة واستقرار الأسرة . تمر الأسرة بمجموعة مختلفة من الانفعالات ، منها الإيجابية مثل الحب والتعاطف وأخرى سلبية مثل الغضب والخوف والقلق والهياج ، وعلى أفراد الأسرة - خاصة

الوالدين - أن يجدوا من الانفعالات السلبية وأن يعالجوها بأسلوب عقلاني / مرن / توافقي ، دون أن يؤثر على استقرار الأسرة أو يؤثر سلبيا على أفرادها . يوجد درجات مختلفة من الارتباط بين أفراد الأسرة تبدأ بالارتباط الكامل والمشاركة التكافلية التامة ، وتنتهى بغياب المشاركة والاهتمام ، مروراً بوجود الاهتمام دون مشاركة انفعالية أو الارتباط مع المشاركة النرجسية بمعنى حب الذات أولاً ثم الاهتمام بالآخر . إن هذه الأنواع من المشاركة لا تظهر بصورة واحدة ومستمرة ، بل عادة ما تكون مختلطة بعضها البعض ، أو تظهر بدرجات متباينة وفي مناسبات مختلفة بين أفراد الأسرة الواحدة . قد تؤثر الحالة النفسية - التي تتغير من وقت لآخر - إلى نوع من هذه الأنواع السابق ذكرها ، وقد يثبت الاتجاه ويستمر نحو نوع معين دون تغيير ، فالإنسان منظومة ديناميكية متغيرة ، يتشكل هيكل جهازه النفسى مع الزمن وفقاً لمجموعة التجارب التي يمر بها .

يؤكد علماء النفس على أهمية الاتجاهات في توجيه السلوك ، ويعرف الاتجاه النفسى بأنه ميل عام مكتسب ، نسبي في ثبوته ، عاطفى في أعماقه ، يؤثر في الدوافع الإنسانية، ويحدد موقف الفرد حيال القيم والمعايير المختلفة، كما يوجه سلوك الفرد. ومن أمثلة الاتجاهات النفسية ، حب الخير وكرهية الشر، وميل الفرد إلى ألوان خاصة من الطعام أو عزوفه عن أنواع أخرى . ويعتبر تعريف جى ألبرت من أدق وأشمل التعاريف فهو يصف الاتجاه بأنه أحد حالات التهيؤ والتأهب العقلى والعصبى التى تنظمها الخبرة وتشكلها التجربة . وعندما يثبت الاتجاه بعد عدة مواقف مشابهة ، فإنه يمتد إلى مواقف مؤثراً وموجهاً لاستجابة الفرد للأشياء والمواقف المختلفة . وقد يكون التأهب موقوتاً على الأجل القريب ، أو ممتداً لأمد بعيد ، فالاتجاه في موضوعه تفادياً وديناميكياً ، بالرغم من ثبوته على المدى القريب . ينبع الاتجاه القريب العابر من تفاعل الفرد مع موقفه المحيط به في لحظة الراهنة ، فالجائع - مثلاً - يقبل على الطعام ، ثم يدفع ما بقى منه بعيداً عنه عندما يشبع . أما التأهب الطويل الأمد فهو أكثر ثباتاً واستقراراً ، فاتجاه الفرد نحو صديق عزيز لديه لا يتغير أو يتأثر كثيراً بالمضايقات الوقتية العابرة، بينما يشعر الإنسان بالضيق من أقل هفوة

تصدر من عدو أو من آخر لا يكن له الحب أو الارتياح .. والاتجاهات في تكوينها مكتسبة وليست فطرية ، تتشكل في مراحلها الأولى من خلال اتصال الفرد بعناصر البيئة الطبيعية ، والبيئة الاجتماعية . إن للأسرة أهمية خاصة في تكوين الاتجاهات ، فالأسرة تعكس مدى سيطرتها على طفولة الفرد وتغذيته بالقيم والمعايير ، وهى التى تشكل اتجاهات الفرد وتظهر مدى خضوعه لها أو ثورته عليها . لا يفرق بعض علماء النفس بين الاتجاه والعاطفة ، ذلك لأنها يتشابهان في تجمعها حول شيء ما ، وفي شحنتها الانفعالية ، وفي توجيهها للسلوك ، وفي أثر البيئة والمجتمع في تكوينها . فالعاطفة تعبر عن ميل داخلى لموضوع معين ، وتتشكل من مجموعة من الانفعالات بعضها غريزي والبعض الآخر مكتسب ، بعكس الاتجاهات التى تتشكل جميعها من الخبرات المكتسبة .

يرتبط البشر - عامة - وأفراد الأسرة بصفة خاصة بعمليات مستمرة من التواصل الذى يأخذ شكل الرسائل اللفظية وغير اللفظية . إن لكل أسرة نمطا فريدا من التواصل يتشكل من خلال التجارب التى يشترك فيها أفرادها ، ويتغير بالتغيرات التى تحدث في شخصياتها . وكلما زاد اضطراب الأسرة زاد التشويه في عمليات التواصل والعكس صحيح . ففي حالة الانفعال السلبى والهياج والصراخ تقل عملية التواصل ويأخذ كل طرف كلام الآخر بمعنى عدوانى / هجومى . وشاع تعبير «لا نستطيع التفاهم» بين أفراد الأسرة ، ليحمل معانى عديدة ومختلفة، فقد يعنى هذا المصطلح لا يوجد تواصل ، أو قد يعنى نتواصل ونتفاهم ولكن الطرف الآخر لا يشبع رغباتى أو احتياجاتى ، أو نحن نفهم جيدا ما يقوله ولكن كل منا لا يعجبه قول الآخر . إن رسالة التواصل بين أفراد الأسرة يجب أن تكون واضحة وجليّة وغير خافية ، فالرسائل المقنعة تصبح صعبة الفهم أو قد تؤدى إلى اللبس أو إلى المعنى العكسى . قد يكون سبب الرسائل المقنعة أو غير مباشرة ، هو الخوف أو القلق من فقد محبة ومودة الطرف الآخر ، ولكن الخوف في العلاقات الأسرية له أثر سلبى ويؤدى على المدى الطويل إلى انهيار الرابطة الأسرية . يتم التّواصل في الأسرة السوية بأسلوب لفظى وبشكل صريح ومباشر ، أما الأسرة غير

السوية فيكون التواصل - عادة - بأسلوب غير لفظي ، أو لفظي ولكن يشوبه السخرية والنقد والاستهزاء والاستفزاز ، وعلى نمط غير مباشر ، ويدور التواصل حول الأوامر الانفعالية واللاشعورية دون الاهتمام بالرسائل اللفظية الموضوعية . قد يخرج أحد أفراد الأسرة عن الموضوع محل النقاش ويستشهد بتجارب سلبية أليمة مرت بين أطراف النقاش ، مما يثير حفيظة الطرف الآخر ، أو ينشأ نوع من الانفعال العدواني عند تذكره التجارب الأليمة السابقة ، فيبدأ الانفعال التهيجي والذي يصل إلى حد العدوان . إن التركيز على الموضوع دون الحيود عن أبعاده يعزز عملية التواصل الإيجابي ويسهل الوصول إلى حل مرضي لجميع الأطراف ، ولمصلحة استقرار الأسرة .

يدمر إلقاء اللوم على الآخر العلاقة الزوجية ، فالعلاقات غير الناضجة تميل دائما إلى لوم الآخر عن كل الأخطاء التي تواجه الأسرة . يشعر الرجل أن كرامته قد أهينت إذا قامت الزوجة بتعنيفه أو لومه ، خاصة إذا كانت في حالة انفعال الغضب . غالبا ما تقوم المرأة بهذا اللوم لأنها تريد أن تناقش الموضوع ، وليس لأنها تعتقد أن الزوج مسئول عما حدث ، ولكن لا يفهم الرجل طبيعة المرأة فيحدث الصدام الذي يؤدي إلى انهيار العلاقة الزوجية . مع التجربة تتعلم المرأة كيف تعبر عما بداخلها وأن تنفث عن غضبها دون إلقاء اللوم على الزوج . إذا بدأت الزوجة المناقشة بأسلوب هادئ ، وطلبت الفرصة للتعبير عما بداخلها ، فسوف يفهم الزوج الموقف ويتحول الغضب والشجار إلى قبول المشاركة في حل المشاكل المشتركة . لو أرادت الزوجة أن يستمع إليها زوجها ويتعاطف معها ويساندها ، فعليها أن تتوقف عن نقده أو لومه على كل صغيرة وكبيرة ، فالحياة مليئة بالمشاكل ، والتغاضي عن صفات الأمور يرفع عن كاهل الإنسان ضغوطا نفسية وعصبية يؤدي تراكمها إلى الانهيار .

اللوم ليس عادة حديثة ، فقد لام آدم حواء بعد ما أخرجها الله من الجنة ، وقام الإغريق بإلقاء اللوم على الآلهة بعد حدوث الكوارث والنواب ، وفي العصور الوسطى ألقى رجل الدين في أوروبا اللوم على الشياطين اعتقادا منهم بأنهم السبب

في «مس الجان» أو ما يطلق عليه الآن الأمراض العقلية - نحن البشر نذهب إلى إسقاط أخطائنا على الغير فنلومهم ، وقد نذهب أيضا إلى لوم أنفسنا ، وبدون تفكير أو روية نوجه الاتهامات والإهانات والاستنكار والتوبيخ والسخرية والافتراء والازدراء ، وقد يتطور التصعيد إلى الصراع والقتال . قد يكون اللوم ضروريا في بعض الأحيان ، ولكن كثيرا ما يتجه البشر - خاصة الضعفاء نفسيا وفكريا - إلى التنصل من تحمل المسؤولية ، والقيام بإدانة الآخر ، وإلقاء اللوم على الغير . إن مدلول اللوم وأبعاده ما هو إلا طرق سلبية يستخدمها الإنسان خوفا من تبعات الخطأ، فليجأ إلى تزييف الحقائق ، والمبالغة والتعميم في إطلاق الأحكام والآراء الضمنية غير الواضحة . يؤدي اللوم إلى إيقاظ المشاعر العدائية ، التي قد تتطور إلى الإساءة والعنف . وفي الجهة المقابلة يكمن العفو والتسامح ، وتحمل المسؤولية لاجتناب مشاعر عدائية ومحفزات لشجار يؤثر سلبيا في العلاقة الزوجية .

يؤدي التفاعل المتبادل بين كل أفراد الأسرة ، والتجارب المشتركة بينهم إلى تشكيل وضع كل منهم بالنسبة للآخر ودوره في كيان الأسرة . يصبح لكل فرد دور معين يتقبله الأفراد الآخريين ، كما يتعرف أفراد الأسرة على وضعه ودوره والعلاقة بينه وبين الآخر . قد يتقبل الجميع هذا الوضع ، وقد يثور البعض طالبا التغيير فيحدث الصراع لمحاولة استمرار العلاقات المتفق عليها في الحقيقة أو في اللاشعور . يمكن ملاحظة هذا التشكيل لأفراد الأسرة ووضع كل منهم في حالة الأزمات حيث يقوم كل فرد تلقائيا بدوره ، منتظرا من الآخريين أن يقوموا بدورهم . يختلف الشكل العام لكل دور من هذه الأدوار التقليدية من أسرة لأخرى وفقا للشخصيات المختلفة لأفراد الأسرة ، ولثقافتهم ومعتقداتهم . قد تستمر حالة الاتزان - المتفق عليها - وقد ينفسخ العقد المتفق عليه لا شعوريا كنتيجة للصراع بين جميع الأفراد حيث يحاول كل فرد أن يحسن وضعه بالنسبة للآخرين ويكتسب مكانة وهيبة . في بعض الأحيان تختار الأسرة عضوا منها يمثل كبش الفداء Scapegoat الذي يقوم بدور الضحية الذي يوجه إليه كل مشاعر السلبية والتوتر ، ويصبح هذا العضو الهدف لكل المشاعر السلبية التي تثار وتتولد في داخل الأسرة حتى تستطيع أن تحافظ

على تماسكها ووحدها . وتتغير الأدوار وتنصيبها لأفراد الأسرة ، فقد يوجد العضو الذى يقوم بدور الموفق فى حالات الاختلاف ، والعضو السيئ أو الخير .

تشكل الأسرة نمطا معيناً للتعامل بين أفرادها ، وكذلك التعامل مع المشاكل الخارجية .

حدد الدكتور صالح حزين - فى المرجع السابق ذكره - أربعة أنماط للتحكم فى السلوك:

• النمط الجامد

أى التعامل بين أفراد الأسرة ، ومع المواقف الخارجية بطريقة واحدة لا تتغير فى كل الظروف ، وبدون مرونة ، مع عدم القدرة على احتمال أى تغيير .

• النمط المرن

ويكون فيه نمط التحكم فى السلوك ثابتاً وواضحاً ومحدداً ، ولكنه يسمح من وقت لآخر بشيء من التغيير الذى يتناسب مع الموقف أو الأفراد .

• نمط: دع الأمور تمر

عندما لا يكون هناك نمط خاص أو مميز للسيطرة على السلوك ، ويتخذ أفراد الأسرة الموقف السلبى - أى لا أرى / لا أسمع / لا أتكلم - حتى تسير الأمور دون مشاكل .

• النمط العشوائى

يتميز هذا النمط بعدم الثبات أو الاستمرارية ، وعدم ثبات أو وضوح اتجاهات أعضاء الأسرة ، وهو نمط يتغير فيه السلوك بطريقة عشوائية .

عند دراسة الجوانب النفسية للأسرة، يمكن وضع مقياس متدرج تشكل أطرافه قطبى السلوك أو الحالة المزاجية لأفراد الأسرة أو الاتجاه الخاص بهم . فإذا كان الجانب المراد تقييمه هو النشاط النفسى الحركى ، يمكن اعتبار أحد القطبين هو الخمول والآخر هو الهياج . إذا أظهر شخص من أفراد الأسرة نوعاً واحداً فقط من هذين

السلوكيين ، يمكن اعتبار أنه يعاني من صعوبات نفسية ، أو من مرض نفسي .
والإنسان السوى هو الذى يمر على جميع أنواع الانفعالات ، ويدخل فى تجربة كل
العواطف دون أن يؤذى نفسه - نفسياً - أو يؤذى الآخرين . ويوجد مراحل نفسية
اجتماعية كدليل آخر لتقييم مواطن القوى والضعف فى أفراد الأسرة مثل :

- الثقة مقابل عدم الثقة .
- الاستقلالية مقابل الاعتمادية .
- التلقائية مقابل التجمل .
- الإنجاز مقابل الكسل والخمول
- الإحساس بالهوية مقابل فقدان الدور والمكانة .
- الألفة مقابل العزلة .
- التماسك والأمل مقابل اليأس والإحباط .
- المبادأة مقابل انتظار الأوامر .

الأسرة هى مجموعة من الأفراد لهم تاريخ مشترك ، وبينهم مشاعر وحاجات
خاصة بهم تتحقق من خلال أنماط من السلوك داخل نسق خاص متميز للأسرة
المعينة . إن فهم سلوك أى فرد من الأسرة يجب أن ينظر إليه من خلال علاقاته بكل
عنصر آخر من أعضاء الأسرة . فمثلا ، قد يتسم الزوج / الزوجة بالسيطرة التامة ،
وتتسم الزوجة / الزوج بالخنوع والانصياع تجاه الطرف الآخر ، ولكن يكمل كل
منهما الآخر ، فيحدث اتزان أسرى وتوازن المنظومة الأسرية ، ويحدث الصدام إذا
اتسم كلاهما بالضعف والخضوع .

إن قدرة الوالدين على السيطرة والتحكم فى أولادهما المراهقين والمراهقات
تعتمد - بجانب قوة الأب / الأم - على الدرجة التى يخضع لها الأولاد ، وبالقدر
الذى يتحملون أو يسمحون به للوالدين لفرض سيطرتهم . إن مجرد إصدار الأوامر
والتعليقات وتجاهلها من الطرف الآخر ، لا يعتبر فرض سيطرة ، فالعلاقة - دائما -

يحددها طرفان، أو أكثر من أعضاء الأسرة . وتأتى النسبية كعنصر مهم في وصف العلاقة بين أفراد الأسرة ، فالابن الكثير الحركة والنشاط ، قد ينظر إليه الأب / الأم على أنه شقى، أو دليل على الاستقلال والحرية .

تذهب بعض الأمهات إلى التدخل المستمر في حياة الطفل ، فلا يترك فرصة لأطفالهن كى يشعروا بالحرية أو التشكيل السوى للجهاز النفسى . مجرد أن ترغب هذه الفئة من الأمهات فى شىء ، حتى تتحول هذه الرغبة إلى أوامر لأبنائها ، وتصبح الأم عقبة فى نياء واستقلال شخصيتهم ، فيصاب الأبناء- فى الغالب - بالفصام Schizophrenia . عرف الدكتور فرج عبد القادر الفصام فى «موسوعة علم النفس والتحليل النفسى» : (هذا المرض يمزق العقل ويصيب الشخصية بالتصدع فتفقد بذلك التكامل والتناسق الذى كان يوائم بين جوانبها الفكرية والانفعالية والحركية والإدراكية ، وكأن كل جانب منها أصبح فى واد منفصل ومستقل عن بقية الجوانب الأخرى ولحالات الفصام طائفة من الخصائص المميزة والمشاركة عادة . والعرض البارز فيها هو البلادة الانفعالية . فالمرضى الفصامى لا يكثرث للحوادث التى تهم مشاعر الإنسان السوى ، ولا يهتم بأصدقائه أو أسرته أو عمله . وهو أيضا يهمل نفسه فيبدو قذراً غير مهتم بمظهره ... ويظهر على المفصومين عرض التفكك بدرجة كبيرة تسترعى الانتباه . فيضحكون حين لا يوجد سبب للضحك ، كما أنهم لا يبدوون أى انفعال حين يدعو الأمر لذلك ، فردود أفعالهم الانفعالية والسلوكية منفصلة كل الانفصال عن عالم الخبرة والواقع وما يحدث به) . وبدراسة آباء الفصاميين تبين أن هناك عددا من أنماط الشخصية التى تميز هؤلاء الآباء بشكل عام ، وكانت الأنماط الخاصة بالسلبية والتفاس وعدم النضج هى الأكثر شيوعا . إن هذه الصفات فى الآباء تكمل وتتفق مع النمط الشائع فى الأمهات ، وهو التسلط والتدخل . وفى حالة وجود هذه السمات فى الأب والأم ، فسوف يشكلان علاقة يغلب عليها التبادل الكاذب وعدم الثقة . ينحول التبادل الكاذب على مر الأيام إلى وسيلة تخفى الصراعات الحادة بينهما تحت قناع من التعاون الزائف والبعد عن نقد الآخر. أما إذا كان الأب يتصف بالسيطرة ، فستحاول الأم

سلب مركزه وكسر تسلطه ، ويحاول الأب من ناحيته الدفاع عن مركزه أو استعادة وضعه التسلطي ، فيسود المناخ الأسرى التفكك والصراع والمشاحنات والنقد ويحاول كل منهما كسب جانب الأبناء . في كل من الحالات السابقة لا يتاح للأبناء فرصة لتنمية الشخصية أو نضوج الجهاز النفسى بطريقة سوية ومتوازنة ، مما يؤدي في الغالب إلى انحرافهم أو إصابتهم بالأمراض النفسية.

كتب الدكتور صالح حزين عن طبيعة البيئة التى يشب فيها الطفل الفصامى :
(إن كلا الوالدين فى هذه الأسر كان يشعر تجاه الآخر بشعور يخفيه ولا يستطيع التعبير عنه، إضافة إلى ذلك فكل منهما أعجب بصفات فى الطرف الآخر، ولكنها صفات لا يشعر صاحبها تجاهها بالارتياح والإعجاب بل صفات يخفى بها عجزه وقلقه . بمعنى آخر لم يكن الإعجاب بينهما بصفات أصلية فى كل منهما بل صفات يستخدمها كل طرف لإخفاء عجز معين فيه، كما أن كلا الأبوين فى هذه الأسر ناقص النضج ويخفى عجزه بطريقة خاصة، فقد يخفى أحدهما عجزه وراء قناع من المبالغة فى القدرة بينما يبالغ الطرف الآخر فى عدم نضجه وراء قناع الحيلة . فما أن يجمعها منزل حتى ينكشف القناع ويضطر كل منهما إلى لعب دور معين ليرضى به زوجه تارة ونفسه تارة أخرى، فإما أن يكون المسيطر أو الخاضع ومع ذلك فالانفاق نادر، فكلا الأبوين يهرب من المسئولية ومن القلق الذى يسببه التمسك بالرأى مما يعطى تلك الأسر مظهر التفكك، ويبدأ الصراع . إن حاجة الأمهات لإخفاء عدم نضجهن يدفعهن إلى الصراع مع أزواجهن، وتصبح الحياة عبارة عن دورة من الحب ودورة من البغض والشجار، ويقوم الأب بدور الطفل وتمثل الزوجة دور الأم اللحوح وتصبح المشكلة بالنسبة للزوج إما أن يتخلى عن قسط من رجولته - صورة الذات اللاشعورية - أو أن يعود إلى كامل إرادته فى رغبة الشعور).

إن هذه الحالة - التى سردها الدكتور حزين - تجعل الزوجين فى حاجة إلى طفل ليقبل من حدة الصراع بينهما . يجعل الوليد الأم أكثر سيطرة على نقص نضوجها من خلال اهتمامها بشخص أكثر منها حاجة وهو الطفل الذى يحتاج دائماً

إلى أمه، كما يصبح الزوج غير مضطر - في بعض الأحيان - أن يلعب دور الطفل أمام زوجته . يسمح هذه الاتزان للزوجين أن يتعدا عاطفياً لإقامة نوع جديد من العلاقات حيث تتميز علاقتهما بما يسمى «الطلاق العاطفي»، ولكن تستمر الحياة الزوجية لوجود عامل مشترك وهو طفل، وتتسم هذه الفترة إما بالتبادل الكاذب، أو الانشقاق الحاد، وكلتا الحالتين تؤديان إلى القلق وعدم الراحة في العلاقة الزوجية. تبدأ الشكوى من الزوجين ، ثم تتحول إلى تبريرات ومقدمات للانفصال ، أو إلى اتهامات ، مثل اتهام الزوج لزوجته : إنها كثيرة الشكوى / تكديية / غير ودودة / زنانة / كثيرة الغيرة / لا تفهمنى / ثرثرة / متسلطة ، أو اتهام الزوجة لزوجها: إنه لا يهتم بى / عنيد / لا ينصت إلى / غير منظم / بخيل / لا يشاركنى العواطف .. إلى آخره . وقد تستمر الحياة بالرغم من كل هذه الشكوى ، لحاجة كل طرف للآخر أو خوفاً من الانفصال وتباعته ، وتتحول العلاقة الزوجية إلى : لا أستطيع العيش معه / معها، ولا أستطيع العيش بدونه / بدونها . قد يهدأ الصراع بمرور الأيام وظهور الوهن النفسى على الزوجين ، وقد يستمر الصراع حتى الوصول إلى الحالة الحرجة فيحدث الانفصال.

لا تستطيع بعض الأمهات أن يتنازلن عن دور الأمومة أو يقللن منها حتى بعد أن يكبر أبنائهن ويعتمدوا على أنفسهم ، خاصة إذا لم يعد الأبناء يعاملون هؤلاء الأمهات كما كانوا يعاملونهن وهم أطفال ، ولم يعودوا يطلبون منهن الرعاية التى كان يطلبها الابن وهو صغير، وأصبحوا يجادلون الأم في كل نصيحة وفي كل أمر . إن هؤلاء الأمهات غير الناضجات نفسياً يمارسن أنواعاً معينة من السلوك مثل الفضول أو التدخل في حياة الأبناء ليشعروا باستمرار بدور الأمومة وسيطرتهن على الأبناء. وقد تمارس بعضهن الحب النرجسى في صورة العدوان أو التدخل في شئون الأبناء أو فرض الكثير من القيود المتعسفة ، وهن في حقيقة الأمر يمارسن العلاقة التكافلية حتى يخفضن من القلق والخوف الوهمى من الانفصال عن الأبناء . كتب الدكتور صالح حزين في كتاب «سيكوديناميات العلاقات الأسرية» عن هذا النوع من الأمهات : (فإذا كان الغرض من استجابة الأم أو كانت وظيفتها هى محاولة

لاستعادة دورها كأم مرة ثانية - علاقة تكافلية - أو السيطرة على قلقها بطريقة لا شعورية ، أى دون وعى كامل بالسبب وراء هذا التدخل فإنها تبقى على عناصر تساعد على استمرار علاقات وأنساق مرضية غير سوية داخل الأسرة . وفي حالة أخرى قد تلجأ الأم إلى الحزن والغضب الشديد لاعتماد الأولاد على أنفسهم وانفصالهم عنها ، وتنداخل هذه المشاعر فتؤثر على وظائف السلوك ، وعلى أنماط التفاعل التى تسود العلاقات الأسرية) .

تختلف أنواع العلاقات الأسرية والتفاعل بين أفرادها من أسرة لأخرى ، ففى الأسرة السوية يكون نمط التواصل صريحا ومباشرا ، أما فى الأسرة غير السوية فيتسم التواصل بعدم الوضوح وبأسلوب غير مباشر . يقوم الزوج المتسلط مثلا بخلق خلافات وافتعال مشاكل أسرية حتى يقنع زوجته بالبقاء فى المنزل ويمنعها من الخروج للعمل ، كما يعبر المراهق عن غضبه من أفراد الأسرة بافتعال المشاجرات خارج المنزل ليشدهم إلى حالة من القلق والضيق . إن أنواع السلوك وأسلوب العلاقة التى تؤدى إلى الاتصال المباشر والصريح فى العلاقات ، بالرغم من أنها قد تزيد من التوتر النفسى والصدام ، إلا أنها تحسن من فرص التفاعل ، كما تقوى الاتصال والتفاعل بين أفراد الأسرة والذى يضعف مع استمرار الوتيرة الواحدة للحياة . إن الإفصاح عن الحب ، والتعبير الهادئ الذى يشوبه العطف والحنان يمكن أن يخلق مناخ من التقارب ويشع الدفء فى داخل الأسرة .

يعتبر التفكك الأسرى جزءا سلبيا فى المنظومة الأسرية يعانى منه الكثير من الأسر بجميع ثقافتها وتقاليدها . عرفت الدكتورة علياء شكرى التفكك الأسرى فى الفقرة التالية : (انهيار الوحدة الأسرية وتحلل أو تمزق نسيج الأدوار الاجتماعية عندما يخفق فردا أو أكثر من أفرادها فى القيام بالدور المناط به على نحو سليم ومناسب) . تتحدد الأنماط الرئيسية للتفكك الأسرى فى الحالات التالية :

- حدوث طلاق ، بسبب قرار أحد طرفى العلاقة الزوجية أو كليهما .
- عدم اكتمال الوحدة الأسرية بسبب انفصال أو هجر الزوج / الزوجة دون حدوث طلاق .

- الحالة التي يعيش فيها أفراد الأسرة سوياً ، ولكن مع انعدام أو تناقص الاتصال والتفاعل بين أفراد أعضائها ، كذلك الإخفاق في الدعم العاطفي بين أفراد الأسرة .

- الغياب غير المتعمد لأحد الزوجين بسبب الوفاة ، أو السجن ، أو المرض أو خلافه .

- الكوارث الداخلية (مثل المرض ، انخفاض الدخل المالى أو انعدامه ، ...) التي تؤدي إلى إخفاق غير متعمد في أداء الأدوار .

يتأثر المجتمع سلباً من ازدياد نسبة التفكك الأسرى ، وعليه تقوم الدولة أو المنظمات غير الحكومية بإنشاء مؤسسات اجتماعية تساعد في إعادة بناء الشكل الأسرى في حالة حدوث التفكك . قد يؤدي التفكك الأسرى إلى انهيار الأسرة وتشرد الأبناء واحتمال اتجاههم إلى إدمان المخدرات وارتكاب الجريمة ، ولذلك تقوم الأجهزة المعنية بمحاولة التوفيق بين الزوجين عند حدوث خلافات . ومن الطرق التي تستخدم لتخفيض معدلات الطلاق ، توعية المقبلين على الزواج بأهمية وقدسية العلاقة الزوجية ، وعدم المبالغة في التوقعات الوردية المترتبة على الحياة الزوجية في المستقبل . إن الزواج لتكوين أسرة مسئولية والتزام، وليس هو الحل لنهاية الشقاء والطريق إلى السعادة الكاملة ، ولكن يستطيع الزوجان أن يحصلوا على أشهى ما فيه بالمرونة والمودة والرحمة .

إذا نظر الإنسان إلى الأسرة على أنها «قيمة» تعلو على جميع اعتبارات المنفعة الفردية ، وأنها تمثل غاية أخلاقية لا بد من تحقيقها ، سوف يتوصل البشر إلى توثيق الروابط العائلية واستقرار الحياة الأسرية التي تعتبر دعامة المجتمع واللبننة الأولى في بنائه . إن الأسرة هي المستقبل من خلال تربية وتقويم النشأ الجديد ، وهى المعلم الأول للطفل الذى يرضع - مع رضاعته الطبيعية - القيم الأخلاقية والمثل العليا . تمر الشركة الزوجية على عمليات متواصلة من الشد والجذب، ومن الأخذ والعطاء، ومن الإثارة والملل، ... صراع خفى في داخل الشريكين . قد تبدأ الشراكة يتطلع

الطرفين إلى السيطرة والهيمنة ، غير مقدرين أن الأسرة مسئولية مشتركة على قدر من المساواة ، كلٌ حسب قدراته وإمكانياته في تحمل الالتزامات والواجبات . تعتبر الخلافات بين الزوجين ظاهرة طبيعية ، فلا يوجد تماثل بين شخصين في كل الطباع أو اتفاق في جميع الآراء ، كما تعتبر صور النزاع في بعض الأحيان تنفيسا عن عواطف مكبوتة أو غضب داخلي أو مشكلات في العمل ، أو محاولة لإثبات الذات . إن التسامح في إدارة العلاقات الزوجية ليس استسلاما أو ضعفا ، بل هو حب ورغبة في حياة زوجية سعيدة ، كما يدل على الثقة في النفس ، والقوة في تحطى التفاهات من الأمور . إن الزواج شراكة مقدسة يجب أن يتسم بالمرونة والتفاهم ، والتعاطف والرحمة من الشريكين .

تحت ضغط العمل ومشاق التفاعل مع الآخرين ، إما أن يهجر شريكا الحياة الزوجية البيت ، هربا من زيادة الضغوط ، أو يذهب الرجل / المرأة بفكره وعاطفته نحو عش هادئ يشعر فيه بالراحة النفسية ومتشبع بالدفء والحنان . يستطيع الزوج / الزوجة أن يخلقا هذا المناخ الذي يجذب الطرف الآخر ، ويشد الأبناء إلى الانتماء لأسرة متماسكة ومتحابية . وينتهي هذا الجزء بنصائح أنثى ومتخصصة في علم النفس التربوي وهى الدكتور بثينة عمارة ، للوصول إلى علاقة زوجية سعيدة وحياة أسرية سوية :

- إذا أردت أن تكسب حب شريك حياتك ، دع الحب يزدهر .
- استعن باللباقة والكياسة في معاملة زوجتك .
- لا تهمل اللفتات البسيطة لشريكة حياتك ، فإن لها في الزواج شأنًا عظيمًا .
- تحدث عن مزايا زوجتك واجعلها تشعر بأهميتها عندك .
- إذا أردت أن أيتها الزوجة أن تحافظى على سعادتك فلا تختلقى النكد .
- لكى تسعد شريك الحياة امنحه التقدير المخلص وشجعه في الحديث عن نفسه .
- من أهم أسباب السعادة الزوجية هى التوافق الجنسى .